في رِحاب التّوراة

دِراساتٌ وحِواراتٌ روحانيّة مُعمّقة في النّصوصِ التّوراتيّة الأسبوعيّة مع
الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

The Original text in English and translations to other languages can be found here:
Covenant & Conversation | Eikev | The Spirituality of Listening | The Rabbi Sacks Legacy

"عيقِف" هو النصُّ الأسبوعي الثالث من كِتاب "دفاريم" (أي سِفر التثنية) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الثانية عشرة من المَقطع السابع وينتهي بالآية الخامسة والعشرين من المقطع الحادي عشر.

روحانِيَّةُ الإِصْغاء

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

إنها واحدة من أهم الكلمات في الديانة اليهودية لكنها واحدة من أصعب الكلماتِ فَهْماً. وأكثر موضعين معروفين ذُكِرت فيهما هُما النصّ الأسبوعي السابِق **"فَإتْحَنَن"** بالإضافة إلى هذا النصّ الذي نحن بصدد دراسته: **"اسمع** يا يسرائيل، إنَّ الله ربّنا إله واحدٌ**"** بحسب ما تذكر الآية الرابعة من المقطع السادس من سفر التثنية، وبحسب ما تذكر الآية الثالثة عشر من المقطع الحادي عشر من نفس السِّفر: "فإنّ **سَمِعتُم سماعاً** للوصايا التي آمركم بها اليوم، لتِحبّوا الله ربكّمُ وتعبدوهُ مُخلصين بكل قلوبكم وكل نفوسكم". ومثلما نلاحظ فإن بداية الآيتين الأولى والثانية كانت كلمة **"شِمَع"**، بمَعنى اسمَع، كما أن هذا الفِعل موجودٌ في بداية **هذا النصّ الأسبوعي** مثلما تخبرنا الآية الثانية عشرة من المقطع السابع: "فيَكون جزاء ما **تَسمَعون** هذه الأحكام".

إنها بالتأكيد كلمة **"شِمَع"** بالعبرية، هذه الكلمة التي ناقشتُ خلال مقالة سابقة [1] مدى صعوبة ترجمتها بدقة للغة الإنجليزية، كون هذا الفعل يحمل معاني عديدة، منها السمعُ والإصغاءُ والانتباهُ والفَهمُ والاستيعابُ والردّ والطاعة، ناهيك عن كونها واحدة من المُفردات الرئيسية في سِفر التثنية، فهي تظهر في هذا السفر بما لا يقلّ عن اثنتين وتسعين مرة، أي أكثرَ من أي سِفرٍ آخر من أسفار التوراة.

ومرةً أُخرى خلال آخر شهرٍ من شهور حياته، نرى نبي الله ورسوله موشيه/موسى يُخاطب بني يسرائيل قائلاً لهُم: **"شِمَع"،** أي اسمعوا وانتبهوا والتَفِتوا، بمَعنى آخر: اسمَعوا ما أقول، اسمَعوا ماذا يقولُ الله عزّ وجلّ، اسمَعوا واصغوا إلى ما يُريده منا، فقَط لو كان بإمكانكم أن تُنصِتوا وتَسمَعوا... لأنّ **الديانة اليهودية هي مُعتقدٌ يقوم على الإنصات والإصغاء والاستماع،** وهذا أحدُ أهم مُساهماتها الأصيلةِ في الحضارة.

لقد قامَت الثقافة الغربية بالأساس على ركيزتين اثنتين هُما الحضارة الإغريقية القديمة وحضارة يسرائيل القديمة**.** في الوقت نفسه، يوجدُ اختلاف كبيرٌ بين الحضارتين، فحضارةُ الإغريق تقوم على أساس الرؤيةِ والمَظاهِر، وأعظم إنجازاتها ترتبطُ بالعين والرؤية والمشاهدة. كما أنها أنتَجَت جُزءاً من أعظم الإنجازات التي عرفتها البشرية في مجال الفن والعَمارة ونَحت التماثيل. أضِف إلى ذلكَ أن أبرز سِماتها هي الفعاليات الجماعية مثل المسرحيات والألعاب الأولمبية التي كانَت

بمثابة عروض للناظرين، بمَعنى أنها عروضٌ الهدفُ منها هو المُشاهدة. ونجدُ أن أفلاطون أحد أبرز فلاسفتها كان ينظر للمعرفة على أنها شكلٌ من الأشكال العميقة للرؤية، أي رؤية المُثُل الحقيقية الموجودة وراء ما تُظهرِه الأمور.

إن هذه الفكرة القائمة على أساس أن المَعرفة هي شكلٌ من أشكال الرؤية لا زالت طاغية على التعبير المَجازي في الغرب حتى يومنا هذا. فعلى سبيل المثال نجدُ هذه الكلمات الإنجليزية مُرتبطة بالرؤية والمُشاهدة والنظر: مثل كلمة (*insight*) والتي تَعني النظرة أو البصيرة، وكلمة (*foresight*) التي تعني الاستبصار أو الاستطلاع، وكلمة (*hindsight*) التي تعني النظر في الأمور بعد فوات الأوان، بالإضافة إلى كلمة (*observation)* التي من معانيها المُشاهدة، وكلمة (*perspective*) التي تعني المَنظور أو وُجهة النظر، وكلمة (*illustrate*) التي تعني توضيح أمرٍ ما عبر استعراضه بالرؤية، وكلمة (*illuminate*) التي تعني الإشارة إلى أمر ما بهدف رؤيته، وأخيراً وليس آخراً عبارة (*shed light*) التي تعني تَسليط الضوء على أمرٍ ما من أجل رؤيته. وتبعاً للّغة الإنجليزية فإن الشخص عندما يفهم أمراً ما فإنه يقول عبارة " *I see*"، بمعنى "أنا أرى".[2]

في المُقابل، نجد أنّ الديانة اليهودية قد طَرَحَت بديلاً مُخالِفاً تماماً لتلك الفكرة، لأنها مُعتقدٌ لا يقوم على أساس رؤية الله عزّ وجلّ، فهو الإله الذي لا يمكنُ تجسيدهُ بأي أمرٍ ماديّ أو مرئيّ على الإطلاق، لهذا نجدُ أن نحتَ التماثيل – باعتبارها رمزاً مادياً مرئياً - هو شكلٌ من أشكال الوثنية تبعاً للعقيدة اليهودية. وهُنا نرى كيف يُذكِّرُ موشيه بني يسرائيلَ خلال **النصّ الأسبوعي السابق (فَإِتحَنن)** بما حدثَ سابقاً عندما لاقوا اللهَ عزّ وجلّ مُباشرة فوق قمة جبل سيناء تبعاً لما تُخبرنا به الآية الثانية عشرة من المقطع الرابع: **"وكُنتُم سامِعي الكلام، وشَبَهاً لم تروا سوى الصوتَ فقط".** فالله عز وجل يتواصلُ بالأصوات، لا بالمشاهدِ والمظاهر، إنه يتكلّمُ ويأمرُ ويُنادي، لهذا نرى القدسية الدينية المُطلقة والكامنة في **"شمَع".** وعِندما يتكلّمُ اللهُ عزّ وجلّ تجِدنا نُنصِتُ ونُصغي، وعِندما يأمرنا تجِدنا نُحاول أن نُطيع أوامره.

وفي هذا السياق فإن الحاخام دافيد كوهين (1887م-1972م) المعروف بالحاخام "هانازير" (أي الحاخام النّاذِر، لأنه كان ينذر على نفسه نذوراً عديدة ألزم بها نفسه) والذي كان من أتباع الحاخام الكبير أڤرهام يتسحق كوهين كوك بالإضافة إلى أنه والدُ الحاخام شآر يَشوڤ كوهين الذي كان كبير حاخامات حيفا عند كتابة هذه المقالة، يوضِّحُ بأن جميع أشكال المَجاز المُستخدمة في سياقِ الفهم في التلمود البابلي* تقومُ على مبدأ السَّمع، لا على الرؤية. فعلى سبيل المثال نجد آيات تتضمن "تا شمَع" (بمَعنى تعالَ اسمَع)، و"قا مَشْمَع لان" (بمَعنى هذا يُعلِّمُنا)، و"شمَع مينا" (بِمعنى مفهومٌ من هذا)، و "لُو شمِيعا لي" (بمَعنى لم أوافِق). كما يوجَدُ دَرسٌ من الدروس والتعاليم التقليدية اليهودية يُطلقُ عليه "شَمَعتا" (بمَعنى ما سُمِع أو ما هو مَسموعٌ) [3]، وغيرها الكثير من العبارات المشتقةٌ من الفعل "شمَع".[4]

وقد يبدو للوهلة الأولى بأن الفرقَ بين الرؤية والسمع في هذه الحالة هو فرقٌ ضئيل، لكن الفرقَ بينهما شاسِعٌ جداً. حيث أننا نجدُ أن الشكل المثالي للمعرفة كان يتضمّن الانفصال أو الانعزال عن الشيء بالنسبة للإغريق، بمَعنى أنه يوجدُ من يرى (أي الفاعِل) ويوُجَد مَن يُرى (أي المفعول به)، لكن كلاهما ينتميان لعوالم مختلفة. فالشخصُ الذي ينظر لرسمةٍ أو تمثالٍ أو ربّما يشاهد مسرحية معينة في المسرح أو يتفرجُ على الألعاب الأولمبية فإنه ليسَ جُزءاً من الفنّ الذي توضحه الرسمة أو التمثال، كما أنه ليس جُزءاً من الدراما التي توضحها المسرحية، ولا جُزءاً من المنافسة التي تتضمنها الألعاب الرياضية، فهو مُجرّدُ مُشاهِدٍ لها وليس مُشاركاً فيها.

في الوقت نفسه فإن السّمعَ والكلام ليسا من أشكال الانفصال عن الشيء، بل هُما شكلان من أشكال الانخراط فيه. فهما يخلقان العلاقة، والكلمة العبرية المُستخدمة للتعبير عن المعرفة **"داعَت"** تحمل معاني القُرب والانخراط والحميمية أيضاً، مثلما تُخبرنا الآية الأولى من المقطع الرابع في سِفر التكوين: "وإنّ آدمَ **واقَعَ** حَڤاه/حوّاء زوجته فحملت وولدَت"، وهذه هي المعرفة من منظور اللغة العبرية، لا من منظور الإغريق.

إننا قادرون على الارتباطِ بالله عزّ وجلّ وبناء علاقة به – رغم أنه دائمٌ ونحنُ زائلون – لأننا مُرتبطون بالكلمات. وعِندما تجلّى الله عزّ وجلّ لنا فإنهُ كان يتكلّمُ معنا، وفي الصلوات والأدعية نحن الذين نتكلّم معه. وإذا أردت أن تفهم علاقة معينة سواء بين الزوج وزوجته أو بين الآباء وأبنائهم أو بين الموظف ورَبّ العمل، فما عليك إلا أن تتجاهلَ كل شيء وتنتبه جيداً إلى الطريقة التي يُنصتون ويتكلمون بها مع بعضهم البعض.

***مُلاحظة توضيحية من المُترجم** :التَّلْمُودُ (بالعبرية: תַּלְמוּד) هو النص المركزي لليهودية الحاخامية والمصدر الأوّل للشريعة الدينية اليهودية (الهلاخاه) واللاهوت اليهودي. يعود أصل كلمة تلمود إلى الجذر العبريّ (ل-م-د)، بمَعنى تعلم ودَرَس. يحتوي التلمود على التشريعات والروايات والحكايات الرمزية والأمثال والصلوات والقواعد الأخلاقية، إضافة إلى نقاشات فلسفية ودينية حول الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم كلا من النصّ المكتوب وهو التناخ، والروايات الشفهية الموجودة في المِشناه والجْماراه (الجْماراه تضمّ النقاشات الحاخامية حول المِشناه). يتكون التلمود من سبعة وثلاثين كتاباً. وتتكوّن المِشناه من ثلاثة وستين كتاباً تنقسم بدورها إلى ستة أجزاء تسمّى "سْداريم "باللغة العبرية. هناك نُسختان من التلمود: البابلي واليروشلمي (أي تلمودَ أرض يسرائيل)، حيث يوثِّقُ التلمود البابلي نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرضِ بابل، واليروشلميّ يوثِّقُ نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرض يسرائيل، إلا أن التلمود البابليّ هو الأكثر شيوعاً واستخداماً.

لقد علَّمنا الإغريقُ أشكالاً للمعرفة تقوم على أساس المُشاهَدة والاستنتاج، خاصة في مجالي العلوم والفلسفة، وقد كان أوائل العلماء وأوائل الفلاسفة من اليونان وظهروا في القرنين السادس حتى الرابع قبل الميلاد. لكن لا يُمكننا أن نفهمَ كل شيء استناداً إلى الرؤية والمظاهر لوحدها. وفي هذا السياق أستَحضِرُ قصة مُعبّرة جداً موجودة في سِفر شموئيل/صموئيل الأول، وهذه القصة تتحدث عن أول ملكٍ من ملوك يسرائيل وهو الملك شاؤول، والذي كان **مظهرهُ يبدو** كمظهرِ الملك، بمعنى أنه كان طويل القامة و **"مِن كتفهِ فما فوقَ كان أطول من كل الشعب"** مثلما تُخبرنا الآية الثانية من المقطع التاسع والآية الثالثة والعشرون من المقطع العاشر من سِفر صموئيل الأول. بالتالي كان الملك شاؤول يبدو كالملك من ناحية **الصورة و**المظهر، لكن من ناحية الأخلاقيات وصفاته الشخصية فإنه لم يكُن قائداً على الإطلاق، بل كان تابِعاً.

ثم أمرَ الله عزّ وجلّ شموئيل بأن يُنصِّبَ ملكاً خَلَفاً له، وأخبرهُ بأنه سيكونُ واحداً من أبناء يشاي/إيشاي. فذهبَ شموئيل إلى يشاي وكان مُعجباً بمَظهَر واحدٍ من أبنائه وهوَ إلِيآف، فاعتقدَ بأنه هو الابنُ الذي يقصدهُ الله عزّ وجلّ ليكون ملكاً خلفاً له. لكن الله عز وجل يقول لهُ: **"لا تنظُر إلى منظره وطول قامته لأني قد رفضته، فالله لا ينظر كما ينظرُ الإنسان، لأنَّ الإنسان ينظرُ إلى العينين، وأما الله فإنه ينظرُ إلى القَلب"** مثلما تذكرُ الآية السابعة من المقطع السادس عشر من سفر صموئيل الأول.

لقد قامَت اليهودية واليهودُ بتعليم البشرِ بأنه لا يُمكننا أن نرى الله عزّ وجلّ، لكن يُمكننا أن نُصغي إليه ويُصغي إلينا. ومن خلال الكلمات المُتبادلة عبر الحديث والإصغاء بإمكاننا أن نبني علاقة حميمة مع الله عزّ وجلّ، فهو بمثابة والدنا وشريكنا وحاكِمنا الذي يُحبّنا ونُحبّهُ. كما أننا لا نَستطيع تجسيدَ الله عبر العلوم، ولا يُمكننا إثباتُ وجوده عبر المنطق، فهذه أنماطٌ فِكرية إغريقية بحتة، وليسَت أفكاراً يهودية أبداً. ومن مُنطلقٍ يهودي بحتٍ فإنني أؤمنُ بأن مُحاولة إثبات وجودِ الله عز وجل من خلال المنطق والعلم تشكل طرحاً خاطئاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى[5]، فالله عز وجل ليسَ مفعولاً به، بل هو الفاعِلُ، والنمطُ اليهودي للعلاقة مع الله يَقوم على أساس المحبة والحميمية والرهبة والإجلال.

وفي هذا السياق أستحضرُ مثالاً لِشخصية يهودية مُعاصرة ومذهلة بكل معنى الكلمة، وهو رجل كان خلال السوادِ الأعظم من حياته مُجافياً للديانة اليهودية، ألا وهو سيغموند فرويد، والذي أطلق على التحليل النفسي عبارة "العلاج بالكلام" أو كما يوصَفُ بطريقة أكثر دقة على أنه "العلاجُ بالإصغاء"[6]، وهو علاجٌ يقومُ أساساً على حقيقة أن الإصغاء الفعّال يعتبر بحد ذاته عِلاجاً. وفقط بعد انتشارِ التحليل النفسي – خاصة في أمريكا – بدأ استخدامُ عبارة " I hear you" (بمَعنى أنا أسمَعُك) في اللغة الإنجليزية كتعبيرٍ عن التواصل عبر التعاطُف وُجدانياً مع من تُصغي إليه. [7]

وهنالك أمرٌ روحانيّ جداً في مسألة الإصغاء، فهو أكثر شكلٍ فعالٍ من أشكال حلّ الصراعات حسب معرفتي. فهنالك الكثير من الأسباب التي من شأنها أن تخلق صراعاً، لكن ما يزيدُ من أمده هو شعور أطرافه – أو على الأقل طرف واحد – بأنه لا يوجد من يسمعهُم ويُصغي لهُم. بمعنى آخر، لم يَسمَع أحدٌ "صوتَ الألم"، الأمر الذي أدى إلى فشل الوصول إلى حالة من التعاطف الوُجداني مع صاحب الألم. ومن هذا المُنطلق نفهمُ لماذا يُعتبر استخدام القوّة أو الدعوة إلى مُقاطعة طرفٍ من أطراف الصراع أمراً مُدمراً للذات إلى حدٍ كبير، فهذه الأمور قد تُخمِدُ نار الصراع لفترة معينة، لكن الصراع سيعودُ مرة أخرى وسيحتدّ بشكل أكثر من السابق. وفي هذا السياق أستذكرُ قصة إيوف/أيوب الذي عانى كثيراً من الظُلم، ولم تُواسهِ مُحاولات من حاولوا شدّ أزره ومواساته عبر الجدال معه، لا لأنه كان مُصِرّاً على أنه مُحِقٌ، بل لأن ما أراده هو أن يُصغي إليه أحد وأن يكونَ صوتهُ مَسموعاً. لهذا، ليس من قبيل الصُدفة أن يستلزمَ تحقيقُ العدل هذا الأمر: " ***audi alteram partem***"، بمَعنى أصغِ إلى الطرفِ الآخر.

لهذا يحتلّ الإصغاء مكانة هامة في صميم العلاقات، وهو يَعني أن نكونَ مُنفَتحين تِجاه الآخر وأن نحترمه، وبأنّ مشاعره ورؤيته للأمور تُشكل أموراً هامة بالنسبة لنا. وبهذا نمنحُ الآخرين الإذنَ ليكونوا صادقين، حتى لو أدّى هذا إلى أن نُصبِحَ عُرضة للتأثر بما سَيقولونه، فالأبُ الجيّدُ يُصغي لأبنائه، وربّ العملِ الجيّدُ يُصغي لِموظّفيه، والشركة الجيّدة تُصغي لِزبائنها وعُملائها، والقائدُ الجيّدُ يُصغي إلى مَن يقودهم. مع التأكيد على أن الإصغاء لا يعني بالضرورة أن نوافق على ما نُصغي إليه، لكنه بلا شكّ يعني الاهتمام والاكتراث بمن نُصغي إليهم. بعبارة أُخرى: الإصغاء هو المناخُ الذي تنمو فيه المحبة والاحترام.

إننا نؤمنُ في الديانة اليهودية بأن علاقتنا مع الله عزّ وجلّ هي بمثابة عملٍ تعليمي تربويّ متواصلٍ مع بقية البشر، إذ كيف نتوقّعُ من الله أن يُصغي إلينا حين نعجزُ عن الإصغاء لشريكٍ أو زوجٍ أو ابنٍ أو لشخصٍ يتأثر بعملنا؟ وكيف نتوقّع ملاقاة الله إن لم نتعلّم كيف نُصغي؟ ففي جبل حوريف/سيناء علم الله عزّ وجلّ النبي إلياهو/إلياس بأنّه – أي الله- لا يوجَدُ في العواصف والزلازل ولا في النيران، بل في **"قول دماماه دَقاه"**، أي في "الصوت الخافتِ المُنخفض" مثلما تذكر الآية الثانية

عشرة من المقطع التاسع عشر من سفر الملوك الأول، وهذا ما أعرِّفُهُ على أنه **الصوتُ الذي بإمكانك سَماعهُ فقَط حين تكون مُصغياً.**

إن الحشودَ والجماهير الغفيرة عادةً ما تتأثرُ بالمُتحدثين العُظماء وتتحمّس عند سماعهم، لكن الحياة تتغير بالمُستَمِعين العُظماء. وسواء كان هذا بيننا وبين الله عز وجل أو بيننا وبين بقيّة البشر، فإن الإصغاء هو بمثابة المُقدمة والخطوة الأولى على طريق المحبة. [8]

---

1. أنظر المقالة التي ناقشت فيها النصّ الأسبوعي **"مِشپاتيم"** والتي تحمل عنوان "الطاعة والسمع".

2. المصدر:

(Chicago: University of Chicago Press, 1980) *Metaphors We Live By* ,George Lakoff and Mark Johnson

3. يظهر هذا في الصفحات الأولى من كتابه "قُل نِقوءاه" (صوتُ النُبوءة).

4. من باب التأكيد والتوضيح، يستخدم كتاب زوهار (الكتاب الذي تقوم عليه الصوفية والقبالة اليهودية) مُصطلحاً مادياً ظاهرياً وهو "تا حيزي" (بمعنى تعال وانظر). وهنالك علاقة وطيدة بين الصوفية اليهودية وأفكار أفلاطون والأفكار الأفلاطونية الحديثة، فما هو مشتركُ بينها هو اعتبارهم للمعرفة على أنها شكلٌ من أشكال الرؤية العميقة.

5. من باب التأكيد والتوضيح، كان هنالك الكثير من الفلاسفة اليهود الكبار الذين عاشوا في فترة القرون الوسطى ممن قاموا بذلك تحت تأثير الفلاسفة المتأثرين بأفكار أفلاطون وأفكار أرسطو الحديثة بوساطة عدد من كبار الفلاسفة المسلمين، ومن يُمكننا استثناؤه من هذه الحالة هو العالم يهوداه هاليڤي في مؤلفه "الكزاري" (كتاب الخزري).

6: المصدر:

See Adam Philips, *Equals* (London: Faber and Faber, 2002), xii. See also Salman Akhtar*, Listening to Others: Developmental and Clinical Aspects of Empathy and Attunement* (Lanham: Jason Aronson, 2007).

7. لاحظ وجود الفرق بين التعاطف والتعاطف الوجداني. فعندما تقول لأحد ما "أنا أسمعك وأصغي إليك" فإنها طريقة لإشعار الطرف الآخر بالصدق، بمعنى أنني ألتفت وأصغي لما تشعر به لكن ليس بالضرورة أن اتفق مع ما تشعر به أو أن اتفق معك أنت شخصياً.

8. لقراءة المزيد حول هذا الموضوع بإمكانكم الرجوع إلى المقالة التي تطرقت للنص الأسبوعي "بريشيت" والتي تحمل عنوان "فنّ الإصغاء"، والمقالة التي تطرقت للنص الأسبوعي "بَمِدبار" والتي تحمل عنوان "صوتُ السّكون".

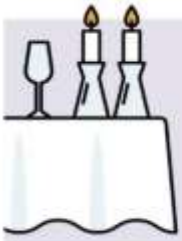

حَولَ مائِدةِ يومِ السَّبتِ المُقَدَّسِ: أَسئِلةٌ لِلتَّأمُلِ

1- ما هي الأمور التي باستطاعة الكلمات أن تُحققها بينما تعجز الصورة عن تحقيقها؟

2- كيف يُعتبر الكلام موضوعاً مركزياً في علاقتنا مع الله عز وجل؟

3- كيف يقودُ الإصغاء إلى المحبّة؟

● These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at **https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/eikev/the-spirituality-of-listening/**

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism*, *Bar Ilan University*